وينضد ويحرس وينقل ويحصي ، كان يصطحب فرسا سوداء وصرة صغيرة واوجاعا في معدته ولكنه كان رجلا قويا وفي ملامحه ما يطمئن .

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي ، انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها كأن الامر قد تم بين العشية والصباح ... كنا قد نسيناها تقريبا ، واعتاد الناس ان يقولوا : زينب ابنة الحاج عباس . وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي امها ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوما لتعريفها او التذكير بها ، أن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين رايت حسنين للمرة الاولى واقفا امامي يطلب عملا دون ان يلح ودون أن يتكلم كثيرا ودون ان تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة ، نظرت فورا الى أصابع يديه ، وحين لم ار أي خاتم فيها قلت لنفسي : هذا هو زوج زينب . ولكنني سألته ان كان متزوجا فاجاب بالنفي ، وسألته عن أهله فقال انه يعرف فقط ان امه عادت الى حوران حين ارسل لها أخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر امره او يلتحق بأخواله ، وانه يعمل الآن ليجمع قليلا من المال يعيده الى بلدة امه التي لم يرها في حياته . وقلت لنفسي : « هذا هو الرجل » وكان كل ما احتاجه قليلا من الاصطبار . ان الاقدار تتساقط على رؤوسنا كالمطر من حيث لا ندري ولا نتوقع ، وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل الى نهايتها اللائقة ... الم تكن امها ، هي الاخرى ، من حوران ؟ يا رحمة الله عليك يا زيد !.. أكنت تدري حين فعلت فعلتك ان السماء لا تنام ؟ يومها نقم الناس جميعا على تلك الزيجة وقالوا : ذهب زيد الى يافا وعاد بعروس من حوران ... وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها ان العروس كانت خادمة عند بيت الرخي ، ولكن لو فكروا يومها هكذا : ومن هو زيد ؟ انه فلاح منفرد لا يعرف أبعد من ابيه ولا يعرف احد من أين جاء ، التحق بزراعة التبغ اجيرا وحين صار في جيبه خمس جنيهات سافر بها الى يافا فاذا به يتزوج هناك ويعود بها ... فماذا كان سيحدث ؟ ولكن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركا في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون ان يترك لهما شيئا ... وقلنا يعود زيد اليوم ، ويعود زيد غدا ويعود بعد اسبوع ويعود بعد شهر ... ولكنه لم يعد الا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار . وقال الناس : هذا زيد وهذا بيته ، وساق الانكليز الحمار الى البيت ، واطلت زوجته ونظرت اليه وقالت للعسكر : « انا لا اعرف هذا الرجل » ... مسكينة ، حسبت ان ذلك سوف يحميها من العقاب ولكنها كانت امرأة بلا ظهر ، وحيدة اكثر من مأذنة الحقل زمن القحل ... وحين اخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة الى بيتي . وقلنا : تعود امها اليوم ، وتعود غدا وتعود بعد شهر ، ولكنها لم تعد ، ولم يعرف احد ماذا حدث : لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال يعبد مجذوبا بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل : موتوا شهداء، فمات زيد وضاعت اخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا ، وقالت زوجتي : نتركها هنا ، وغدا تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبها فتتزوج وتكسب ثوابها ... فأي ثواب اكثر من ان نزوجها لرجل لا يعرف عنها الا انها من داري ؟ طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين : « اذهب الى الحقول ، وستجد العمل هنا مريحا ومربحا اذا كنت انت مريحا ، وعلى اي حال فان سلوكك وحده هو الذي سيحكم عليك ، واذا كنت طيبا فسترضى » .

واخذت انظر الى الحاج عباس جالسا وراء سبحته المصنوعة من بزر الزيتون وقد لمعت حباتها بين اصابعه الثخينة ، ورأيت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ ، أتراه يعلم ؟ انه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة ، الايام وحدها ستظهرها . أتراه يعلم ؟ أيريدني ان اقتل رجلا واتركه يمسح اصابعه في قميصي الملطخ ؟ ولكنني كنت أريد العمل بأي ثمن فقد